بسم الله الرحمن الرحيم

رياض الصالحين

مقدمة والحديث على آيات الباب

الشيخ: خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذا باب التوبة، التوبة مضى الكلام عليها مفصلاً في الأعمال القلبية، وحقيقتها: أنها الرجوع إلى الله -تبارك وتعالى- من الكفر إلى الإيمان، أو من المعصية إلى الطاعة، أو من التقصير إلى التشمير، وذلك أن التوبة تارة تكون من الكفر أو الشرك، وتارة من الكبائر، وتارة من الصغائر، وتارة من التقصير، أو فعل خلاف الأولى، أو فعل المكروه، فكل هذا مما تجري فيه التوبة، وذكرت في بعض المناسبات أن عمران بن حصين -رضي الله تعالى عنه- قد أصيب بمرض صبر عليه نحواً من أربعين سنة، ثم بعد ذلك اكتوى، والاكتواء مكروه وليس بمحرم؛ لأنه تعذيب بالنار، وكان يُسلَّم عليه، يعني: تسلم عليه الملائكة، فلما اكتوى لم يعد ذلك يقع له، بمعنى: أنه لم تعد الملائكة تسلم عليه بعد الاكتواء، ثم تاب بعد الاكتواء، فلما تاب عادوا إليه، يعني: عاد التسليم إليه، فهذا مثال على وقوع التوبة من فعل المكروه.

والإنسان قد يتوب من فعل خلاف الأولى، من التقصير في حق الله -عز وجل-، كان لا يحافظ على السنن الرواتب، لا يصلي الوتر، يفعل بعض المكروهات، بعض المشتبهات، فتاب إلى الله -عز وجل- وشمر في طاعته، وترك المشتبهات، أو ترك المكروهات، ترك خلاف الأولى، وصار منتقلاً من حال إلى حال أكمل، والتوبة قد تكون من المحرم، وقد تكون مما هو دونه مما لم يبلغ مرتبة التحريم.

يقول النووي -رحمه الله-: قال العلماء: "التوبة واجبة من كل سوء" يعني: إذا كان الفعل من قبيل المحرم، سواء كان من قبيل الإشراك، أو الكبائر، أو الصغائر فهي واجبة قطعاً، والله -عز وجل- أمر بذلك، والأمر للوجوب **{وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}** [النـــور: ٣١]. وعلق عليه الفلاح **{لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}** فهذه التوبة واجبة، لكن التوبة من ارتكاب خلاف الأولى، أو التوبة من المكروه، أو التوبة من التقصير فيما لم يبلغ ترك الواجب، أو فعل المحرم فإن هذه التوبة مستحبة، وهنا يقول: التوبة واجبة من كل ذنب، فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى لا تتعلق بحق آدمي فلها ثلاثة شروط:

أحدها: أن يقلع عن المعصية، والثاني: أن يندم على فعلها، والثالث: أن يعزم أن لا يعود إليها أبداً، فإن فقد أحد الثلاثة لم تصح التوبة.

هذه الشروط الثلاثة: الأول: الإقلاع عن المعصية، ما هي المعصية التي يحتاج أن يقلع عنها؟ قد يقول الإنسان: إنه تائب إلى الله -تبارك وتعالى- من سماع المعازف، أو من لبس الحرير، أو من لبس الذهب، أو من البقاء في أماكن لا يجوز له البقاء فيها، أماكن للمنكر كان يشهدها ويحضرها، فالشرط الأول: أن يقلع عن المعصية، أي: لابد أن يفارق هذا المكان الذي لا يجوز له البقاء فيه، كأن يجلس الإنسان في مرقص، أو في محل فيه معازف، أو في خمارة، أوفي أماكن فساد، شر، اختلاط، هو يواقعها، والتوبة تقتضي أن يفارقها، وأن يبتعد عنها، وأن ينفك من هذا الذنب، هذا الشرط الأول، فلا يبقى ملابساً له بحال من الأحوال.

الثاني: الندم، أن يندم على هذا الفعل، وهنا سؤال معروف وهو أن الندم أمر يتعلق بالقلب، يتسلل إليه من غير إرادة، بمعنى: أن الإنسان أحياناً يحاول أن لا يندم على الشيء ومع ذلك يندم، وقد يريد الندم ولكنه لا يستطيع، أحياناً الإنسان يخسر في تجارته، في بيعه، في شرائه فيندم، ويحاول أن يدفع الندم ولا يستطيع، وأحياناً يكون الإنسان فعل معصية في شيء يحبه، وتقبل نفسه عليه، فيحاول أن يندم عليه، فكلما تذكر شعر بلذة، فكيف يندم هذا؟ نقول: لابد من الندم، وقد ذكرت فيه قاعدة في بعض المناسبات وهي: أن خطاب الشارع إذا توجه إلى المكلف في أمر لا يقدر عليه فإنه ينصرف إما إلى سببه وإما إلى أثره، ففي هذا المثال خطاب الشارع فيه لابد من الندم.

يقول: أنا لا أستطيع أن أدخل الندم إلى قلبي، أريد أن أندم فما العمل؟ نقول له: اتجه، خطاب الشارع **{لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا}** [البقرة: ٢٨٦]. **{إِلَّا مَا آتَاهَا}** [الطلاق: ٧]. فالله لم يكلفنا ما لا نطيق، فالخطاب يتوجه إلى السبب، وهو هنا: أن يتذكر أنه عصى الله، وأن الله يراه، وأن الملك كتب ذلك، وأنه سيجده في سجلاته، وأن يتذكر عظمة الله -عز وجل-، وجرأته عليه، وما إلى ذلك من العذاب الذي أعده الله -عز وجل- لمن عصاه، فإنه إذا تذكر ذلك ندم، ويمكن أن نذكر أمثلة واقعية عادية في شيء يلتذ به الإنسان، فإذا تذكر معنىً آخر تحولت هذه اللذة إلى ألم، فالإنسان الذي يفجر ولربما يعاشر امرأة بالحرام، أو يزاول شهوة من الشهوات بالحرام لو قيل له: أين أنت؟ الكاميرا فوق رأسك، والناس يشاهدون كل ما فعلته، ما الذي يحصل له؟ بلحظة واحدة يتغشاه من الغم، والهم، والألم، والحسرات ما لا يقادر قدره، كان في مكان أو في مصعد، فوافقته امرأة، أو نحو ذلك فقبّلها وهو يظن أن هذه الكاميرا عبارة عن إضاءة إذا انقطع التيار الكهربائي تضيء، فلو قيل له: إن الذي يشاهدك أبوك، أهلك كلهم ينظرون إليك، ما الذي يحصل لهذا الإنسان؟

وهذا آخر يزاول شيئاً محرماً، يفعل شيئاً محرماً، يستخفي به، ذهب إلى مكان، وجلس يتكلم بأمور حرام، ويتكلم مع امرأة بفحش وقبح، ويتصل بها ويكلمها في أمور لا تليق، فقيل له: كل الكلام الذي حصل مسجل، ما الذي يحصل له؟ يغشاه من الغم ما الله به عليم، يسود وجه، فأي الأمرين أعظم نظر الله إلى العبد أو نظر هؤلاء المخلوقين؟ نظر الله -عز وجل- أعظم، وكان ينبغي أن يستحيي منه، كيف والملك ينظر ويكتب، والجوارح ستنطق، يقال لها: هذا فلان عمل كذا وكذا، فيجيب: لا، أنا ما عملت ذلك، فيُختم على فيه، وتنطق جوارحه **{الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}** [يـــس: ٦٥].

فإذا تذكر الإنسان هذه المعاني، وأنه عصى ربه، وتجرأ عليه يندم ولابد، ولذلك القلب إذا كان حيًّا فإن العبد إذا فعل المعصية ندم، فإذا مات القلب لم يتحرك، وهذا معيار في حياة القلب وموته؛ ولهذا قال الله -عز وجل-: **{إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ}** [الأعراف: ٢٠١] فيتأثر مباشرة، لماذا فعلتُ هذا؟ وتذهب عنه الحجب، حجب الشهوة، حجب الغفلة، إذا كان من الأمور الغضبية يذهب عنه حجاب الغضب، وعند ذلك يفيق ويعرف أنه كان مضيعاً مفرطاً مجترئاً على ربه -تبارك وتعالى-، هذا ما يتعلق بالندم.

الثالث: العزم أن لا يعود إليها أبداً، بمعنى أنه لا يقول: أنا تائب بلسانه فقط، وهو ينوي الرجوع، فهذا كاذب في توبته، فلو كان متردداً أو غير جازم ويقول: أنا لن أرجع، وفي نفسه لو حصلت له فرصة أخرى رجع، أو في نفسه يقول: أحاول أن لا أرجع فهذه ليست توبة، هذه يسمونها توبة الكذابين، فلابد من العزم المصمم على عدم الرجوع، هذه ثلاثة شروط في كل الذنوب المتعلقة بحق الله -عز وجل.

هناك شرط آخر إن كانت المعصية تتعلق بحق المخلوق كما ذكر النووي -رحمه الله-، إن كانت تتعلق بحق آدمي فشروطها أربعة: هذه الثلاثة، وأن يبرأ من حق صاحبها، وكيف يبرأ منه؟ إن كانت مالاً أو نحوه رده إليه، هذا شرط زائد على الإقلاع، والندم، والعزم أن لا يعود.

قد يغصب الإنسان أرضاً، أو مالاً، أو يسرق من إنسان، فهذه معصية لا يكفي فيها الندم، والإقلاع، والعزم أن لا يعود، بل لابد أن يُرجع لكل إنسان مظلمته، وحقه، فإن كانت عيناً من الأعيان ردها إليه، وإن كانت من الحقوق المعنوية كأن يكون هذا الإنسان وقع في عرضه، قذفه، أو اغتابه، فالقذف أن يمكنه من ذلك، بمعنى: أن يمكنه من إقامة الحد عليه أو أن يعفو عنه؛ لأن هذا القذف وإن لم يطالب به الإنسان في الدنيا فإنه لا يعني أن تبرأ ذمته يوم القيامة.

وإن كانت غيبة أو نحو ذلك فهل يتحلل منه بالغيبة أو لا؟ هذا فيه تفصيل: فإذا كان في ذكره ذلك له يزيد في إيغار الصدور، ويولد العداوات، والشحناء، والقطيعة فإن الشريعة لم تأت بهذا، الشريعة جاءت بالأمر بالاجتماع، والتحاب، والتواد، ونبذ كل ما يؤدي إلى الشر، والفرقة بين المسلمين، وإن كان يقبل منه أن يقول له: أنا اغتبتك فسامحني، وحللني، فيجب عليه أن يقول له ذلك، وتبرأ ذمته، وإن كان يغلب على ظنه أنه سيؤدي ذلك إلى عداوة وشر فلا يقول له شيئاً، فما الذي يفعله؟ يذكره في المجالس التي ذكره فيها بالسوء، يذكره بالخير، ويدعو له، ويتصدق عنه، وهنا تساؤل: ما حاجة الإنسان في أن يغتاب الناس حتى يضطر أن يذكرهم في مجالس بالخير، ويضطر أن يتصدق عنهم، ويضطر أن يدعو لهم، كان الواجب عليه أن يمسك لسانه ويرتاح، فالأمر ليس بالسهل، والغيبة من الكبائر، هذا إذا كانت غيبة فيها هذا التفصيل على الراجح، وهو الذي اختاره النووي -رحمه الله-، وذكرت هذا المعنى في الأعمال القلبية، في التوبة.

قال تعالى: **{وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}** [النـــور: ٣١]، يجب على الإنسان أن يتوب من جميع الذنوب والمعاصي ولا يجزِّئ ذلك، لكن لو تاب من ذنب واحد وعليه ذنوب متعددة فالراجح أن التوبة تكون صحيحة، يعني هذا الإنسان تاب من الغيبة، لكن بقي عنده أعمال أخرى محرمة فإن توبته صحيحة إذا استوفت الشروط، فتتجزأ التوبة، لكن يبقى أن الأصل والأفضل والأكمل بل الواجب أن يتوب من جميع الذنوب.

قوله تعالى: **{وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا}** هذا أمر، والأمر للوجوب **{أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}** أي: من أجل أن تفلحوا، فعلق الفلاح -وهو تحصيل المطلوب والنجاة من المرهوب- بالتوبة، فمن أراد الفلاح فعليه أن يتوب، والله -عز وجل- فضله واسع، أي أن المخلوق ربما تسيء إليه، أو تخطئ، أو يتوهم أنك أخطأت، أو قصرت، ثم بعد ذلك يبقى هذا الخطأ يلاحقك عنده إلى قيام الساعة، لكن الله -عز وجل- إذا تاب العبد إليه فرح بتوبته، وأقبل عليه واجتباه.

قوله تعالى: {وَاسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ ...} [هود: ٩٠]. تكلمنا من قبل على الاستغفار، هل هو توبة؟ قلنا: إنه يكون توبة إذا قصد به التوبة مستوفية للشروط، أما مجرد أستغفر الله، أستغفر الله على اللسان دون مواطأة القلب فإنه لا يكون توبة، لكن لو أن الإنسان قال: أستغفر الله بقصد التوبة فإن هذا يكون توبة؛ إذ إن التوبة لا يشترط أن يتلفظ فيها بشيء.

{تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا} [التحريم: ٨]. ما هي التوبة النصوح؟ تقول: نصَحَ الثوبُ وهذا الشيء ناصح بمعنى أنه خالص لا شائبة فيه ولا كدر، ليس فيه أخلاط، فما هي التوبة النصوح؟ فسرها العلماء بتفسيرات متعددة، والراجح في معناها والذي ذكره الحافظ ابن القيم –رحمه الله–، وذكره غيره–:

أن التوبة النصوح هي ما استوفت أوصافاً أو شروطاً:

الأول: أن تكون عامة من جميع الذنوب، ما فيها استثناءات.

الثاني: أن تكون جازمة لا تردد فيها بحال من الأحوال.

يعزم أن لا يعود تماماً إلى الذنب، ولا يكون فيها تردد، لا يقول: لو حصلت على فرصة ثانية احتمال أن أفعل.

الشرط الثالث: أن تكون خالصة لله، ما تكون لشيء آخر.

وهل تكون التوبة لشيء آخر؟ الجواب: نعم، التوبة أحياناً تكون لشيء آخر، قد يفعل الإنسان ما حرم الله –عز وجل– ثم بعد ذلك يقع له أمر في دنياه يكرهه، يعني يجد غبَّه في دنياه، اكتُشف مثلاً في عمله أن هذا الإنسان له علاقة محرمة، أو أنه يستعمل النت في مواقع محرمة، وهناك جهة مراقبة على هذا في العمل، فقالوا له: أنت تستغل هذا الجهاز في النظر إلى ما حرم الله، فيقول: لا، أبداً، لا يمكن، مستحيل، كذب، فيقولون له: هذه كل المواقع التي دخلت عليها، عند ذلك اسود وجه، وعرق جبينه، واستحيا، فبعد ذلك تاب، وصار يخاف من أن يلمس الجهاز، صار إذا رأى الجهاز كأنه رأى شبحاً، هذا تاب لكن خوفاً من الله؟، لا، هذا كما قال العلماء: قد يتوب خوفاً من المخلوق، يتوب خوفاً على معيشته، على وظيفته، يتوب بهذا الاعتبار.

وهذا آخر يبتز فتاة بالاتصال عليها ومعاكستها، وهي تسجل كل هذه المكالمات، ثم ذهبت إلى الهيئة وأخبرتهم بذلك، فلما جاءوا به قال: أبداً، لا يمكن، هذا غير صحيح، هذا كذب، افتراء، فقيل له: هذه رسائلك في الجوال كلها أمامك، فأسقط في يده، ثم قيل له: سنرسل هذه إلى المحكمة، وستطلب الفتاة محاكمتك، وكذلك سنرسلها إلى جهة عملك، وجهة عملك حازمة في هذه القضايا، وسيُتخذ القرار وهو: الفصل مباشرة بلا حقوق، وهذا يسمى فصلاً تأديبيًّا، فيقول: أرجوكم لا يصل هذا إلى العمل، الذي تريدونه أنا مستعد، هل هذا تاب خوفاً من الله؟ هذا ليس بخوف من الله، هذه لا تسمى توبة شرعاً، لكن امتناعه هذا هل هو حرام؟ الجواب: لا، لكن هل هي التوبة التي يبدل الله بها السيئات حسنات؟ لا، هو لا زال لم يتب التوبة الشرعية، يعني: في الآخرة سيلقى الله وهو ما تاب، فلو حصلت له فرصة أخرى في المستقبل بعيداً عن هذه الرقابة، أو بعد أن يتقاعد فسيقول: افعلوا ما شئتم، إذن لابد أن تكون التوبة خالصة لله.

بعض الناس قد تكون توبته رياءً وسمعة، يقول: رجعت إلى الله، وصرت إنساناً طيباً ومتديناً، وصالحاً، وخيّراً، وبعيداً عن المخدرات، أو غير ذلك.

مثلاً: زوجته هددته، قالت: سأتركك، لا يمكن أن أبقى معك، وصلت إلى حال من اليأس، فترك ما كان فيه من الفجور، هذه لا تسمى توبة شرعاً، بمعنى: أنه يلقى الله وهو مصر على الذنب، فلابد أن تكون التوبة خالصة، فهذه ثلاثة شروط مهمة.

ابن القيم -رحمه الله- ذكر معنى آخر في غاية الأهمية في التوبة عموماً، قال: إن التوبة الحقيقية ليس فقط أن يترك هذا الذنب، بل أن يقبل على الله -عز وجل- بكليته، هذا التائب حقيقة، لا أن يقول: والله أنا تائب من المخدرات ويشرب الدخان، أو لا يصلي، فهذه ليست توبة حقيقية، ومن كان هذا حاله غالباً يرجع إلى ما كان عليه، ومن كان صادقاً في توبته تجد حياته تغيرت، أقبل على ربه -تبارك وتعالى- بكليته، صار هذا الإنسان مطيعاً لله بعدما كان عاصياً، صار مقبلاً على ما يحبه الله ويرضاه.

والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد.